الباب الثالث

(تربية وبناء)

١- بر الوالد

٢- عطر المتعلمين

٣- من هي الكبرى

٤- صور من الكرم

١ ـ برُّ الوالد

أبتاه طاعتُك واجبةٌ، أبتَاهُ محبَّتُك قائمةٌ أبتَاه أرشْدني، أبتَاه ساعدْني.

نفسي تكادُ تختنقُ، ورُوحي تكادُ تطيرُ، أينَ مجدُنا؟ وأين عزُّنا؟

أبتاهُ، أبتاهُ:

ألستُ ابنَ الأولى سَعدُوا وسادُوا
ولم يلدُوا امـــرَأ إلا نجيبَـــا
ونالُوا ما اشتَهَوْا بالحَـــزْم هوناً
وصـــادَ الوَحشَ غلْهُم دبيبَـــا

ويهـدئ الأبُ الشـابَّ الطَّمُـوحَ، ويُطمـئنُ الشيخُ الفتَى الجَمُوحَ.

وتدورُ الأيَّامُ، وتَمـــضي السِّنونَ، ويرحلُ

الفتَى معَ أبيه، ويُغادرُ الشبلُ مرابعَ الطفولة، ويتركُ اللَّيثُ ملاعبَ الصِّبا.

والأب أخْبَرُ النَّاس بابنه، يعرفُ قدرتَه ونجابتَه، ويعلمُ وَثْبَتَه وشجَاعَتَه، ويُخفِّفُ طموحَه، ويُروِّض إباءَه، ويخافُ علَيه؛ فالابنُ غال، والولدُ عزيزٌ:

وإنّمـــا أولادُنا بيننا ... أكبادُنا تمشي على الأرضِ
إن هبَّت الريحُ على بعضهم ... لم تشبع العينُ من الغمضِ

ومن لا يحبُّ ابنَه؛ كانَ عبدُ الله بنُ عمرَ بن الخطَّاب -رضيَ اللهُ عَنه- يذهبُ بولَده سالم كُلَّ مَذْهَب حتَّى لامَه الناسُ فيه، فقالَ:

يَلُومُونَني في سالمٍ وألومُهم
وجِلْدةٌ بينَ العَيْن والأنف سالمُ

ويظلُّ الإمامُ عبدُ الرحمن بن فيصل - رحمَه اللهُ- يرقبُ ابنَه البطلَ عبدَ العزيز، ويعلقُ علَيه الآمالَ، ولكنَّه يخشَى علَيه ويخافُ، وتجتمعُ شفقَةُ الأب وجرأةُ الابن، وعطفُ الأبوة وبرُّ البُنوَّة.

ويكونُ بينَ الأب وابنه حوارٌ ونقاشٌ. فالفَتى البطلُ عبدُ العَزيز يأبَى الضَّيْمَ، ولكنَّه لن يعودَ إلاّ بموافقَة أبيه، ويرفضُ الشِّبلُ البقاءَ في الكُوَيْت، ولكنَّ رضَا الأب قبلَ كلِّ شَيء.

ويأذنُ الأبُ، ويعودُ الفَتى، ويتحقَّقُ النَّصْرُ، ويستعيدُ مُلكَ آبائه وأجدَاده، ويكتبُ لأبيه يبشِّرُه ويهنِّئُه ويستدعيه، ويركبُ الشيخُ الوقورُ، ويعودُ مسرعاً إلى الرياض.

ويخاطبُ عبدُ العزيز نفسَه، ويخلُو البطلُ

بذاته، فالوالدُ عادَ، والأبُ رجعَ، والإمارةُ لَه، والزعامةُ لَه، ويُسطِّر الابنُ رسالةَ برٍّ ووفَاء، ويدوِّنُ سطورَ مجدٍ واقتداء، فيقول: والدي الكريم.

الإمارةُ لكُم، وأنَا جنديٌّ في خدمَتكم.

هُو جنديٌّ يخدمُ أبَاه، وهو بارٌّ يُرضي والدَه. ويأبَى الأبُ العظيمُ، والوالدُ الكريمُ، ويقولُ: ولدي عبدَ العزيز، إن كانَ قصدُك من استدعائي إلىَ الرياض أن أتولَّى الإمارةَ فهذَا لَن يكونَ ولا أقبلُه مطلقًا، ولا أقيمُ في المدينة إذا ألححْتَ به.

ويحتارُ الابنُ؛ فرضَا الوالد أساس، وعطفُ الأب هدفٌ، وبرُّ الشَّيْخ واجبٌ.. لكن كيفَ يكونُ الحالُ؟

واحتارَ واستخارَ، وتدخَّلَ العلماءُ وقالُوا:

علَى الابْن أن يطيعَ أباه، والتفتُوا إلى الإمام عبدالرحمن، وقالوا له:

أنتَ بوصفكَ والداً لعَبد العزيز رئيسٌ علَيه ومن ثَمَّ علَى البلاد عامَّة. وردَّ الإمامُ عبدُ الرَّحمن بحَزْم:

ولكنَّ الإمارةَ لَه.

وقالَ الابنُ البارُّ:

إنِّي أقبلُها بشَرط أن يكونَ والدي مشرفاً على أعمالي دائماً، فيرشدَني إلى ما فيه خيرُ البلاد ويردعُني عمَّا يراهُ مضراً بمصالحها.

وتعودُ الأقاليمُ، الواحدُ تلوَ الآخَر، وتتوحَّدُ البلادُ، والبطلُ عبدُ العزيز يستشيرُ أبَاه في كُلِّ أمْر، ويأخذُ رأيَه في الصَّغير والكَبير.

ويتعاظَمُ شأنُ البَطَل، ويزدادُ رفعةً، ويزدادُ تواضعاً لأبيه، حتَّى إنَّه لَم يكُن يسمحُ لنفسه مطلقاً أن يَطَأ أرضَ غُرفة من غُرَف القَصْر إذَا كَان والدُه تحتَها. يقولُ ـ رحمهَ اللهُ ـ: كيفَ أستطيعُ أن أسمحَ لنَفْسي بأنْ أمشي فوقَ رَأس أبي؟

وكانَ لا يجلسُ مطلقاً في حَضرة والده إلاّ إذا دعَاه إلى ذلكَ علانيةً.

ويذكِّرُنا موقفُه هذَا بمَا روَتْه كتبُ الأدَب من أنَّ غلاماً يقالُ له ذَرّ حضرَتْه الوفاةُ فحضَرَ أبُوه فقالَ وهُوَ بينَ يَدَيه يجودُ بنَفْسه: ذَرٌّ، لئنْ متَّ لما في مَوْتك علينَا غَضَاضةٌ، ولئنْ عشتَ لما بنَا إلى غَير الله حاجةٌ. فلمَّا ماتَ وقفَ على قَبْره، ثُم قالَ: اللهمَّ إنِّي قَد غفرتُ لذرٍّ ما قصَّرَ فيه من

وَاجب حَقِّي، فاغفرْ لَه ما قصَّر فيه من وَاجب حقِّك. فلمَّا انصرفَ من قَبْره سُئلَ: كيفَ كانَت عشْرَتُه معَكَ؟ فقالَ: ما مشَى مَعي في لَيْل قَطّ إلا كانَ أمَامي، ولا في نَهار إلا كانَ وَرَائي، ولا ارتقَى سقفاً كنتُ تحتَه.

لكَ اللهُ أيُّها العظيمُ؛ إنَّك تقدِّمُ دروساً في البرِّ، وتُجسِّدُ صُوَرَ الإكرام. فهلْ يفعلُ أبناؤُنا ذلكَ؟!

إنَّك بطلُ الجَزيرة وصقرُها، وأسدُ الوَطَن وموحِّدُه، تتضاءَلُ وتصغُر أمامَ أبيك. فهلْ يعلمُ جيلُ اليوم ذلكَ؟!

يقولُ محمدُ أسد: إنِّي لا أزالُ أذكرُ الحرجَ الذي سبَّبَه لي تواضُعُ المَلك عَبد العزيز، رحمه الله. ففي ذات يومٍ كنتُ في الرِّياض ـ ولعلَّه في شَهر كَانون

الأوَّل سنة ١٩٢٧م ـ وجئتُ كالعَادة لزيارة الإمام عَبد الرَّحمن بن فيصل في جَناحه بالقَصْر الملكيِّ.

وكُنَّا جالسَيْن فوقَ الوَسائد علَى الأرض، وكانَ الشَّيخُ الإمامُ مسترسلاً في الكَلام عَن إحدَى المسائل الدينيَّة المحبَّبة إليه. وفجأةً دخلَ الغرفةَ أحدُ الخَدَم، وأعلَن (الشيوخَ)، يقصدُ الملكَ عبدَ العزيز رحمه الله.

وفي اللَّحظة التَّالية كانَ الملكُ يقفُ عندَ عتبة البَاب. يقولُ محمَّد أسَد: وأردتُ أن أنهضَ، ولكنَّ الإمامَ عبدَ الرَّحمن أمسكَني من معصَمي وأجلسَني كأنَّه يقولُ: أنتَ ضَيفي أنَا.

وشعرتُ بارتبَاك عظيم لا أستطيعُ لَه وصفاً لاضطَراري إلى البَقاء جالساً، بينما بقيَ الملكُ

عبدُالعزيز بعدَ أن سلَّمَ على أبيه واقفاً عند عتبة الباب، منتظراً الإذن له بدخول الغرفة، فهوَ لا بدَّ أنَّه قد اعتادَ مثلَ ذلكَ من والده الإمام عبد الرحمن.

ولَقد تغاضَى الملكُ عَبدُ العزيز عَن وجُودي بشبه ابتسامَة كَي يُسرِّي عَنِّي، وفي الوَقْت نَفْسه مضَى الإمامُ عَبد الرحمن في حَديثه كأنَّما لَم يحدُثْ مَا أوجبَ انقطاعَه عَنِّي.

وبعدَ بضْع دقائقَ رفعَ بصرَه وأومَأ إلى ابنه بهزَّة من رأسه قائلاً: اقتربْ يَا ولَدي، واجلسْ.

ويقولُ حافظُ وهبَة: كانَ عبدُ العزيز من أبرِّ النَّاس بوَالده وذَوي قُرباه، كانَ يزورُ والدَه كلَّ يَوم، ويستشيرُه في مَهامِّ الدَّولَة، ويُطلعُه علَى

جَـمـيع الكُتب التي يرسلُهـا إلى حكَّام العَـرَب وغَيْرهم.

ويقـولُ حـافظٌ: لقد لاحظتُ مرةً في إحـدَى زَوْرَاتي للإمَـام عَـبد الرحـمن أنَّه لا يقرأ الكتبَ التي تُرسَلُ إليه، ويردُّهَا معَ الرَّسُول كمَا هيَ.

فسـألتُه: لماذَا لا تقرؤها؟ لقـدْ أرسلَهـا إليكُم عبدُ العزيز لتطَّلعُوا عليهَا، ولترشدُوه برأيكم إذا رأيتُم فيها خَطأ.

فـقالَ الإمـامُ عـبـدُ الرحـمن: إنَّ عـبـدَ العـزيز موفَّقٌ، لقد خالفْنَاه في آرَائه كثيراً، ولكنْ ظهرَ لنَا بَعْدَ ذلكَ أنَّه هو المصيبُ، ونحنُ المخطئونَ.

إن نيَّتَه معَ ربِّه طيبةٌ، لا يريدُ إلا الخيرَ للبلاد وأهلها، فاللهُ يوفقُه، ويأخذُ بيَده.

إنها صورٌ متعددةٌ، ومواقفُ متنوعةٌ يقدِّمُها الملكُ عبدُ العَزيز.

ومن ذلكَ أيضاً أنَّه ذاتَ يَوم اجتمعَ في الرِّياض أمراءُ المَناطق وعلماؤُها وأعيانُها ورؤساءُ القَبائل، وكانَ في مقدّمَة الحاضرين الإمامُ عبدُ الرَّحْمن بن فيصل، وبعدَ أن انفضَّ الاجتماعُ، وخرجَ الجميعُ، وجيءَ بحصَان الإمَام ليركَبه بادرَ الملكُ عبدُ العزيز علَى رُؤوس الأشْهَاد، وأخذَ مقْوَدَ الحصَان، وقرَّبه بنَفْسه، وانحنَى لوَالده ليجعلَ من كَتفه مُرْتَقًى يضعُ علَيه قدَمَه ليعتليَ حصَانَه، وركبَ الأبُ الحصانَ، وبقيَ الابنُ واقفاً في أدَب جمٍّ حتَّى ودَّعَ الإمامُ جميعَ مَنْ حَفَوا به.

وبلغَ من برِّه بأبيه أنَّه كانَ يخرجُ كلَّ صبَاح من قَصْره بميدَان الصَّفاة بمدينَة الرِّياض ماشياً إلى قَصْر وَالده، فإذَا وصلَ إلى القصر أرسلَ مَن يستأذنُ لَه بالدُّخول إلى مَجْلسه للسَّلام علَيه.

ويبقَى في الخَارج ينتظرُ السَّماحَ له بالدُّخول، فإذَا جاءَه الإذنُ تقدَّم إلى المَجْلس، وسلَّم علَى والده، وقبَّلَ يدَه، ثم جلسَ إلى جوَار البَاب حينَ يكونُ مجلسُ أبيه غاصّا بمَنْ قدمُوا للسَّلام علَيه.

هذا هو الملكُ عبدُ العَزيز يجسِّدُ البرَّ، ويكونُ سجيّةً من سجاياه، ويقدِّمُ صُوَراً تنطق ببرِّه وتُصَوِّر تواضُعَه، وتكشفُ عن شخصيَّته.

إنَّ الأبناءَ جديرٌ بهمْ أنْ يعرفُوا ذلكَ، وحريٌّ بهم أن يقرأوا هذه الجوانبَ المشرقةَ ويعلمُوا هَذه الصِّفات الخيّرة.

رحمَ اللهُ الراحلَيْن الإمامَ عبدَ الرحمن بن فيصل وابنَه الملكَ عبدَ العزيز؛ ففي سيرتهما القدوةُ والمَثَلُ.

عطر المتعلِّمينَ

التربيةُ هَمٌّ، والتعليمُ مسؤوليةٌ، وبناءُ الرِّجال هاجسُ القادة الغَيُورين على شعُوبهم، وسجيةُ الزُّعماء المخلصين لأوطانهم.

وحينَ انطلقَ البطلُ يوحِّدُ الوطنَ ويستعيدُ مَجْدَ آبائه وأجداده كانَ يرنُو إلى السَّيف بنظرة ويرمقُ الكتابَ والقَلَمَ بنظرة أخرى.

ولهذَا استعانَ بمجموعة من المستشارين المتعلِّمين واحتضنَ - رحمَهُ اللهُ - بعضَ الرِّجال المثقفينَ المؤهَّلين واستمعَ لنصائحهم، واهتمَّ بالتعليم وكيف يقدِّمُه لشَعبه؟ وكيفَ يوفِّرُه لأمته؟

يقولُ الرِّيحانيُّ: اجتمعتُ في البَحْرَين بأديب نجديٍّ محبٍّ لابن سُعود إلا أنَّه قليلُ الكَلام فيه

وسألتُه عَن رأيه في الملك عبد العزيز، فقالَ: أنتَ ذاهبٌ إليه، والراغبُ مثلُك في الحقيقة يصمُّ أذنَيْه ويفتُح عينَيْه.

ثُم قالَ: أسألُكَ يا حضرةَ الأستاذ، بَل أرجُو منكَ أن تشيرَ على المَلك عبد العزيز وتُلحَّ علَيه أن يفتحَ المدارسَ في بلاده.

هَذه نصائحُ المحبِّينَ، وهذه آراءُ المخلصين.

وكانَ ـ رحمَه الله ـ يجلُّ العلمَ، ويكرمُ العُلماء، وله مواقفُ متعددةٌ معَ رجال التَّعليم تكشفُ عَن حرصه علَيهم واهتمامه برسَالتهم.

وأمرَ بفَتح المدَارس، وأكرمَ رجالَها. وفي ذاتَ يوم أقيمَت في القَصْر الملكيِّ حفلةُ عَشاء دُعيَ إليها كبارُ الموظَّفين وأعيانُ الرِّياض وفي مقدّمتهم الأمراءُ.

وجاءَ دخولُ المدرِّسين إلى قاعَة الطعام متأخراً، ورآهُم الملكُ وأكرَمَهم وقدَّمَهم على غَيرهم وأجلسَهم على مائدته، وصارَ يقولُ لَمَنْ حوله إنَّ الحياءَ يغلبُهم فأكرمُوهم.

إن للمعلمين عنده مكانةً وحظوةً، ووفاءً واحتراماً، فحين زار الكويت عام ١٣٥٤هـ سمع أن معلماً له كان يقرأ عليه القرآن في أيام الطفولة، مازال موجوداً، فأرسل إليه واستدعاه ولا طفه وأكرمه، ومنحه مكافأة مالية مجزية.

وذاتَ مرة وعلَى غَير ميعاد زارَ مدرسةَ الأمرَاء في الرِّياض، ودخلَ إحدَى غُرَف التَّدريس واجتمعَ حولَه التلاميذُ من أطفَال آل سعود ولاحظَ في ثَوْب أحَدهم بقعة كبيرة من الحبر والطالب يُحاول إخفاءها عن نَظر أبيه. فقالَ

الملكُ له: يا بُنيَّ لا تُخْفها؛ إنَّها عطرُ المتعلِّمين.

منهج تربويٌّ، وحديث نفسيٌّ، وإكرامٌ للعلم. فالمعلِّم يجلسُ على مائدته وبجواره والطلابُ يسعَدونَ بزيارته، ويُحوِّلُ خجلَ ذلك الطالب إلى فَرح وطَرب.

مَن هي الكُبْرَى؟

جاءَ في الأثَر: ما نَحَلَ والدٌ ولدَه خيراً من أدَب حَسَن. وتربيةُ الأبناء مسؤوليَّةُ الآباء.

رأى مالكُ بنُ دينار رجلاً يُسيء صلاتَه فقالَ: ما أرحَمَني لعياله.

فقيل له: يسيء صلاتَه وترحمُ عيالَه؟!

قالَ: إنَّه كبيرُهم، ومنْه يتعلَّمُونَ.

وقَالت الحكماءُ: من أدَّب ولَدَه صغيراً سُرَّ به كبيرا.

ولقدْ كانَ الملكُ عبدُ العزيز ـ رحمَه اللهُ ـ مطبوعاً على الأدَب؛ فهوَ تربيةُ أبيه، لهُ منذُ الصِّغَر مواقفُ عجيبةٌ، وأخبارٌ متميزةٌ تؤكِّدُ نجابَتَه، وتبيِّنُ فطنَتَه.

من ذلكَ أنَّه دخَل مجلسَ حَاكم البَحْرَيْن بعدَ رَحيله من الرِّياض، وهوَ في سنِّ الفتوَّة، وكانَت العادةُ في مجَالس الشَّيخ عيسَى بن عليٍّ آل خليفةَ حاكم البَحْرَين آنذاكَ أن يجلسَ هُو في وسط الغُرفَة وعلَى يَمينه أمراءُ آل خليفةُ وعلَى يسَاره كبار القَوْم دونَ تَرتيب. وإذا حضرَ غريبٌ للسَّلام على الشَّيخ يتحرَّجُ القَومُ حينَ يكونُ المجلسُ مملوءاً ولا يجدُ الغريبُ له مكاناً يجلسُ فيه، ولا يوجدُ من يدلُّه على مَقعَد، ولا مَن يفسحُ له المجالَ.

وأثناءَ وُجود المَلك عَبد العزيز ذاتَ يَوم دخلَ كبيرُ إحدَى القبَائل للسَّلام علَى الشيخ عيسَى وبعدَ أنْ سلَّم وقفَ وسطَ المجلس حائراً لا يدري ماذَا يصنعُ، ولم يتقدَّمْ إليه أحدٌ ليدُلَّه علَى

المكَان المناسب، كمَا أنَّ الشَّيخَ عيسَى لَم يُشرْ إليه بمكَان يتَّخذُه. ولعلَّ الأماكنَ كانَت مملوءةً بالحُضور. وتحرَّكَ الفَتَى اللَّمَّاحُ الذي رضعَ التربيةَ، وعرفَ الرجولةَ والشهامةَ، وقامَ ووقفَ وأشارَ إلى الضَّيْف أنْ أقبلْ إلى هُنا، وأفسحَ له مجالاً للجُلوس بينَه وبينَ الذي يَليه من آل خليفةَ، والتفتَ حاكمُ البَحْرَين، وقالَ للمَلك عَبدالعزيز: جزاكَ اللهُ خيراً وطرحَ فيكَ البركةَ وأبقَى اللهُ أسرَتَكم المباركةَ التي تحافظُ علَى سَمْت العَرَب وشَرَفهم.

وانتهَى اللقاءُ وانفضَّ الحضورُ، وأقبلَ ذلكَ الأعرابيُّ وزعيمُ تلكَ القبيلة، وشكر الفتَى البطل، وقبَّلَ الشِّبلَ المؤدَّبَ، ودعَا لَه ولأسرَته ودارَت الأيامُ، ومضَت السنونَ، واستعادَ الملكُ

عبدُ العزيز مجدَ آبائه وأجدَاده، وصارَت له جلساتٌ، وأصبحَ عندَه لقاءات.

ويا تُرى، هَل يتركُ أفرادَ أسرَته وكبارَ القَوْم يدخلونَ ويجلسونَ دونَ تَرتيب ونظام؟ وهلْ يجعلُ الحرجَ يتكرَّرُ في مَجلسه كما كانَ ذات يومٍ في مَجلس الشَّيخ عيسَى؟

إنَّ عبدَ العَزيز مدرسةٌ تربويَّةٌ، يرعَى شؤونَ الحَرب وأمورَ السِّلم، وَيَرقُبُ أفرادَ أسرَته ورعيَّته، فيقوِّمُ ويُربِّي ويُهذِّبُ ويُؤدِّبُ.

ولذلكَ جمعَ آلَ سُعود ذاتَ يوم، وأعلمَهم أنَّ مقامَهم وشرفَ عائلتهم محفوظٌ أينَما جلسوا ما دام كبيرهم له المقام الأول، وعليهم فسح المجال لضيوفه للجلوس في المقامات الأولى التي على يمينه ويساره أينما جلس.

وصارتْ تعليماتُه سنةً حسنةً ومنهجاً معلوماً للصغير والكبير، وأصبحت قاعدة وسجية في جلوس أفراد العائلة المالكة في حضرة الملك.

وأصبحُوا يجلسُونَ في حَضرته في مكَان منفَصل عَن المَقَامات الأولَى الواقعة إلى يَمين الملك ويساره.

وصارَ جلوسُ أفراد العائلة بحسب السنِّ الأكبرَ فالأكبرَ. وهكذا ربَّى ـ رحمه الله ـ فأجادَ التربيةَ، وسنَّ سناً حسنة، وورَّثَ خصالاً حميدة، وأبقى صفات نبيلة.

لقد كُنْتُ ممن يحضرونَ بينَ الحين والآخَر مجالسَ خَادم الحرمَين الشريفَيْن ـ أعزَّه اللهُ ـ وأرَى أفرادَ الأسْرَة المالكَة يحضرونَ ويتركونَ

المقامات الأولَى والمقاعدَ المجاورةَ لخادم الحرمين.

وكنتُ أتساءَل عَن هَذه العَادة كيفَ جاءَتْ؟ ومَن سنَّها؟ ومَن أشعَرهم بذلك؟

ولما قرأتُ سيرةُ البطل الراحل وأخبارَ المَلك المؤسِّس علمتُ أنَّ هذَا الخُلُقَ من تربيته، وأنَّ هَذا الإعدادَ من تركته. بلْ حكَى لي أحدُ أحفَاده[1] أنَّ بنات المَلك عبد العزيز دخَلْنَ علَيه ذاتَ يَوم وقد أقبلْنَ يتدافَعْنَ، كلٌّ واحدة تريدُ التقدُّمَ.

فطرحَ سؤالَ تربية، وقَال: مَن هي الكُبرى؟ ولم تجب البنات!

ثُم قالَ بنبرة أعلَى: مَن هي الكُبرى؟

(١) هو الأمير/ فيصل بن فهد بن عبدالعزيز. رحمه الله وأسكنه فسيح جناته.

وارتبكت الغـاليَـات! فكرَّر سـؤالَ التَّـأديب والتَّعليم: من الكُبرى؟ وفهمْنَ الجوابَ وعلمْنَ المرادَ، وانتظمْنَ الواحدةُ تلوَ الأخرى والثانيةَ أصبحت خَلفَ الأولَى، والثالثةَ وهكَذا.

أصبحت النِّسوةُ يحضُرنَ للسَّلام، الكبيرة فالكبيرة. إنَّه بذلكَ يؤكِّدُ حقَّ الكَبير ويربِّي الصَّغيرَ على احترام مَن هُوَ أكبرُ منه وعلَى إجْلال مَنْ هُو أقدمُ منه.

هذه أخلاقُ الإسلام يجسِّدُها عبدُ العَزيز وهذه صفاتُ المؤمنين يؤكِّدُها صَقْر الجزيرة. رحمه الله، وأسكَنه فسيحَ جنَّاته.

صُوَرٌ من الكَرَم

البطولةُ مجدٌ، والكرمُ تاجٌ. وهاتان الصِّفتان من سَجايا السِّيادة، ومن سمات القيادة.

ومن لا يتمنَّى الذِّكْرَ الحسنَ؟

كل غادٍ لحاجة يتمنى
أن يكون الغضنفر الرئبالا[1]

وشاعر الفصاحة والبيان وأمير الشُّعراء في الماضي والحاضر المتنبيِّ يصفُ السيادةَ بأنَّها مشقةٌ وهلاكٌ، وأنَّها فقرٌ وإملاقٌ:

لولا المشقةُ سادَ الناسُ كلَّهُمُ
الجودُ يفقرُ والإقدام قتالُ

والملكُ عبدُ العزيز - رحمهُ اللهُ - سادَ وقادَ

(١) الغضنفر والرِّئبال: اسمان من أسماء الأسد.

وأسَّسَ وبَنَى وعرَّضَ نفسهُ للمهالك، وقادَ جيوشَهُ للمخاطر، وتقدَّمَ الأبطالَ، وسبقَ الفرسان، واجتمعَت لديه صفاتُ الزَّعامة وعلاماتُ النَّجابة، ومقوِّماتُ القيادة.

وكانَ بعيدَ النَّظر ينظر إلى المستقبل، ويرمق الغد، ويرنو إلى أبنائه بنظرة أمل وبناء، ويُعدُّهم للقيادة والزَّعامة. ولقد كانوا كمَا رغَب، ونالُوا ما تمنَّى. ربَّاهم على الكَرم فصارُوا كراماً وعلَّمهم البطولةَ فأصبحُوا أبطالاً، وأشركَهم في القيادة فكانُوا قادةً، ولقَّن أبناءَه منذُ الصِّغَر مقوِّمات القيادة ومزايَا الزَّعامة.

فها هُو ذا يكشفُ عن جَانب من إنسانيَّته من خلال دَرْس عمليٍّ لابنه صَاحب السُّمُوِّ الملكيِّ الأمير عَبد المَجيد بن عَبد العزيز. يقولُ الرَّاوي

خير الدين الزِّركْلي رحمه اللهُ: كنتُ معَ المَلك عَبد العزيز ذاتَ يَوم في سيَّارته الخاصَّة، وكانَ في السيَّارة أخُو الملك، الأميرُ عَبد الله بن عَبْدالرَّحمن، والسيِّدُ حمزةُ غَوْث، وكان بينَنا ابنُ الملك عبد المجيد الذي كانَ سنُّه يومَئذ خَمْسَ سنَوات. وقد جرَى في السيَّارة ما يلي:

أعطى الملكُ عبدُ العزيز ابنَه قبضةً من الرِّيالات وارتقبَ ما سيفعلُ بها.

وبدأ عبدُ المَجيد يلعبُ بهَا فقالَ له الملكُ: أعط إخوتَكَ يا عبدَ المَجيد. يقولُ خيرُ الدِّين: وقامَ عبدُالمجيدُ بتوزيع تلكَ الرِّيالات علَيْنا، وبعدَ هُنَيْهَة التفتَ الملكُ، وسألَ عبدَ المجيد: أينَ الرِّيالات؟ فمدَّ عبدُ المجيد يدَيْه فارغَتَيْن.

قالَ عبدُ العزيز: أنفقتَ ما مَعَكَ؟

قالَ عبدُ المَجيد: أيْ نَعَمْ.

قالَ عبدُ العزيز: لا تَخَفْ؛ يعوضُكَ اللهُ عنها. وأعطاهُ غيرَها.

وما زال الملكُ يُعطي الابنَ الصَّغير، والابنُ يوزِّعُ.

يقولُ خيرُ الدين الزِّرِكْليُّ: ولقدْ أدركْنَا أنَّ الأبَ يُلقِّنُ ابنَه درساً عملياً في الكَرَم ويشعرُه من الطفولة بأنَّ الجُودَ لا يفقرُ.

إنَّ عبدَ العَزيز ـ رحمَه اللهُ ـ يردُّ علَى المتنبِّي بأنَّ الكرمَ للمُلوك، وأنَّ قاعدةَ المتنبِّي لعامَّة النَّاس وأنَّها ليستْ لهؤلاء الذين هزمت مكارمُهم المكارمَ كلَّها.

وقدمَ وافدٌ علَى المَلك عَبد العزيز ذاتَ مَرة وأمرَ الملكُ بإكَرامه، وأخذَ قلماً، وكتبَ له

بثلاثمائة ريال، ولكنَّ القلمَ زادَ صفراً، وتردَّد المختصُّ، وراجعَ الملكَ، فقال الملكُ إنَّها شطحةُ قَلَم. أعطُوه ثلاثةَ آلاف، ولا يكن قلمُ عبدالعزيز أكرمَ من عبد العزيز.

وذاتَ مرَّة كانَ يتنقَّلُ بينَ القَبائل، وكانَ بجانبه كيسان، أحدهُما للنُّقود الفضيَّة، والثَّاني للنقود الذهبية. وأقبلَ على سيَّارته أعرابيٌّ هَرِمٌ، فمدَّ الملكُ يدَه يريدُ كيسَ الفضَّة، وأخرجَ منهُ قبضةً، فكانَ من كيس الذَّهَب، وبَعدَ طرفَة عَيْن من التردُّد دفعَها إليه، ولاحظَ أنَّه أعمَى، فقالَ الملكُ: إن النقودَ التي أخذْتَها ذهبٌ فلا يضحكُوا عليكَ.

والتفتَ إلى مَن كَان خلفَه في السيارة، وقالَ: سبحانَ اللَّه! أردتُ أن أعطيَه بعضَ الرِّيالات

الفضية، ودخلَتْ يَدي في كيس الذَّهَب، فلمَّا عرفتُ ذلكَ روادَتْني نَفْسي أنْ أردَّ الذهبَ وآخذَ من كيس الفضَّة، ولكنْ قلتُ: هَل تكونُ يَدي أكرمَ مني؟!

هَذه جوانبُ من إنسانيَّته تكشفُ عن كَرَمه وحُبِّه للمواطنين وشفقَته عليهم، وتُجسِّدُ إباءَه ومروءَتَه، وتصوِّرُ عظمتَه وأخلاقَه.

المراجع

١- البلاد العربية السعودية لفؤاد حمزة، الطبعة الثانية ١٣٨٨هـ-١٩٦٨م.

٢- الطريق إلى الإسلام، محمد أسد، مكتبة العبيكان ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.

٣- تاريخ نجد الحديث، أمين الريحاني، دار الجيل بيروت. الطبعة السادسة ١٩٨٨م.

٤- خمسون عاماً في جزيرة العرب، حافظ وهبة، الطبعة الأولى ١٣٨٠هـ-١٩٦٠م.

٥- شبه الجزيرة العربية في عهد الملك عبدالعزيز. خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت.